تعاطف

متوحد

بقلم : فتحي هاشم

في ليلة قمرية من ليالي الصيف ، اتخذ الرفاق مجلسهم المألوف على شاطىء البرعة حيث اعتادوا قضاء السهرة تحت سحره هناك . حين اقبلت عليهم ، كانت الشلة تنامها ، وتزيد رجلا غريبا لم اكن قد رأيته من قبل .

أثار هذا الرجل اهتمامي للوهلة الأولى ... كان ضامرا ضمورا غريبا ، كأنه توقف عن النمو في سن العاشرة . ضخم الرأس ، بارز عظام الوجنتين ، دعما ... ليس فيه ما يطيب للراءي سوى عينيه ، عينا مستديرتان ، نهيتان ، يترقرق فيها بريق ذهبي أخاذ ، توحيان بأن وراءهما عالما فسيحا بعيد الاغوار ، على أن كتمانه ـ وليس شكله ـ هي التي أثارت صورته في ذاكرتي .

شرع يتكلم بعد أن جلست ، ويبدو انه كان يواصل حديثا قطعه عليه مجيئي . قال موجها حديثه الى مختار المجالس حوله :

ـ أنت ترى هذا ... ولكني لا أوافقك ..

وسكت هنيهة ، وأخذ يعرك كفيه ثم استطرد :

ـ الألم ؟! ... الألم فخر الانسان ! ..

هو تاج الشوك النبيل الذي يتوج هامات البشر ... وهو أيضا اليموع لكل صمور رفيع ، انه ينبوع الحب ، والمروءة ، والحنان ، والسرور ... انه ينبوع السرور أيضا ...

ضحك مختار ضحكة خفيفة وقال مداعبا :

ـ آه ... هذه النقطة الأخيرة لا أفهمها ... ولكن لا تنس أن الحيوانات تتألم ...

ولم تكن تبدو عليه الرعشة الحادة في النقاش ، وان ما قاله لم يكن أكثر من ملاحظة ومضت في خياله فنطقها دون أن يهتم بسماع رد عليها ، ولعله قال ذلك لمجرد السخرية من صاحبه . بيد أن هذا اندفع متحمسا :

ـ أجل هذا صحيح ... ولكنها في هذه الحالة تكون قد اقتربت خطوة من الانسان .. لقد رأيت بعيني رأسي تعبيرا بشريا عن الألم في عيون بعض الحيوانات ... أنهم ... تعبير بشري ... رأيت ذلك مرة في عيني حاموسة !؟

لفظ الكلمة الاخيرة بصوت خافت ، كأنه خاف أن يحدث أسماعنا ، على انه

ما كاد يلمحها حتى دمعته روحه من الضحك والتعليقات . وانتظر حتى صمتوا فعاد يقول رافعا صوته عن ذي قبل :

ـ كانت متعبة ، نازفة العظام ، وبها جرح مستقيم في ظهرها ... ويبدو انها كانت حديثة الولادة ـ فصرعها المسبح بسير الى ذلك ـ ولعلهم ساقوا وليدها الى المذبح فهذا يحدث كثيرا .. وكانت تسير بين رجلين ، الأول يشدها ، والثاني يسوقها بعصا ويضربها ... ولكنها توقعت وانت ان تسير رغم الضرب والشد والدفع وصيحات الغضب التي راح يطلقها الرجلان ... وحين اشتد عليها النكير ، احدثت تحرك عنقها يمنة ويسرة وهي تزمجر ، وقد ترغرق في عينيها تعبير حقيقي ، تعبير بشري ... كان مريعا من الألم واليأس والحزن والذل ... تصور كل هذا يبدو في عيني جاموسة في لحظة ألم !!

عاد الرجال الى الضحك والصخب مرة أخرى ، وتخلى بعضهم عن واجب المجاملة للضيف فهجموا عليه يعرضون سخرياتهم :

قطب الرجل حاجبيه وأخذ يتمثل غيظه في الوجوه وقد ارتسم فيها تعبير غامض ... وكنت احسب انه لن يعود الى الكلام بعدما حدث ولكني رأيته ينظر الى وعل فمه ابتسامة عريضة ثم شرع يخاطبني . قال دون ان تختلج نبرة صوته :

ـ انهم لا يفهمون !!.. ان الناس لا يفهمون ـ وذلك ما يثير الخوف حقا ـ ان الأشياء السهلة في متناول أيديهم جميعا ، ولكنهم لا يتناولونها ... مثلهم كمثل الهمجي الذي يعيش في مدخل منجم من مناجم الذهب ، ولا يفعل أكثر من أن يجول فيه ويتخذه حفرة لمواشيه !!

وقطع هذا الحوار نداء حاد جاء من عرض الطريق « طحال عال » . حينئذ دب النشاط في الحاضرين وتحمس البعض بطوعهم ، وقام من بينهم من ينادي البائع ، وقد الهاهم ذلك عن مناوشة الغريب والرد عليه .

كدس البائع الخبز ، والطحال ، وشرائح الطماطم وقراطيس الملح ، على مائدة صغيرة في الوسط ، وتم اعداد كل شيء أعلى أحدهم بدء العشاء قائلا : تفضلوا !!! »

وكان مثل هذا العشاء يجتذب عادة الكلاب الضالة من حولنا ، فما هي الا لحظة حتى ظهرت طلائعهم !!! جاء اولا كلب ضخم ، أسود ، يتبعه بعوته ، وتقدم من الأكلين بحذارة وثقة . وعضة قدمه أحدنا بحجر أصاب جنبه . زمجر الكلب وكشر لنا عن أنيابه ، ولكن حجرا آخر حمله يولي الأدبار .. جرى مسافة ثم وقف واستدار الينا يرمقنا في صمت ، كمخلوق يريد أن يعتذر عن شيء !!! وضحك الضيف قائلا :

ـ انه يشتمنا !!!

وقوبلت هذه الملاحظة بالفكاهة والرضا .

لم تكف الكلاب عن ملاحقتنا ، ولم نكف نحن عن زجرها ورجمها ، وكان من عادة الكلاب الغوية أن تزمجر وتكشر عن انيابها ، اذا أصابتها رمية حجر ، اما الكلاب الضعيفة ، فكانت تصرخ

وتمضي ، وتجرى مذعورة وذيلها منكسر بين رجليها الخلفيتين .

ويبدو أن الكلاب بتست منا في النهاية فكان أن اختفت ، وان ظل بعضها رابضا على مبعدة ، يراوده الأمل دون أن يجسر على الاقتراب ...

وظللنا لحظة صمت ، لم يكن يسمع خلالها سوى اللهث ، والتمطق ، والبلع .

ورايت صديقنا العربي يلتفت فجأة منا ديا ، تعال ، وأشار الى شيء لم أتبينه في أول الأمر ... وحين دققت النظر رايت كلبا ضامرا بارز العظام ...

اقترب الكلب محاذرا وهو يطلع ويجر نصفه الخلفي ـ كانت احدى ساقيه الخلفيتين مكسورة ـ بينما راح صاحبنا يستحثه ويشجعه قائلا ، تعال لا تخف

... يقال ... وتبعه الكلب عند ورقة قذرة بها آثار طعام ، وراح يلعقها بشغف ثم التهمها ... وضحك الصيف ملاحظا :

ـ الفقر أيضا يصيب الكلاب ...

ثم عاد الى الكلب ، يناديه ويقربه ، ويلقي اليه بقطع الخبز . وأخذ الكلب يقترب حتى صار عند قدميه . وعندما هم أحدهم بطرده نهاه عن ذلك . فكان أن تركوه وقد أثار هذا العمل شيئا من النفور في نفوسهم ، على أن الغريب لم يبال بأحد ، وظل يوالي الكلب بالفتات وهو يضحك راضيا ، واغتنم فرصة مرور بائع الطحال مرة أخرى ، فاشترى بقرش وقدمه له قطعة قطعة . وفي النهاية تمدد الكلب تحت الكرسي ونام مطمئنا .

وظل الرجل طوال السهرة يوليه عنايته ، فهو لا يفتأ يلمسه بنظراته بين آن وآخر ، ويداعبه ملاطفا .

ـ هبوط ...

حينئذ يهز الكلب ذيله ويعوي ، معربا عن عرفانه ورضاه .

وقد أثار هذا المشهد بعض التعليقات والضحكات ، واتجهت شهية المزاح للسخرية ... عدا الذي يحاوره :

ـ انهما متشابهان تماما ، كأنهما شقيقان ...

وقال آخر :

ـ الطيور على أشكالها تقع ...

ولكن مختار خاطب الصيف في سخرية سافرة ، اذ كان يبدو انهما صديقان ، وليس بينهما حرج ، قال وهو يرمقه كمن :

ـ بدأت الآن أومن بتناسخ الارواح ... لو كنت اعرف أنك ميت ، وقابلت هذا الحيوان في الطريق ، لقلت في نفسي ، ان روحك تقمصت هذا الكلب النابح ...

ولم يبد على الرجل الغضب لسماع هذا الكلام ، بل شاركنا الضحك ... ثم انحنى ونظر الى الكلب قائلا :

ـ اسمع ما يقولون ... لانهم لهذا السبب ...

ثم رفع رأسه وقد تألقت عيناه بالغبطة وأشرقت على فمه ابتسامة صافية ، غلب صفاؤها على دمامة وجهه وقال :

ـ سيظلون دائما على أعتاب المجد دون أن يخطر ببالهم أن يتقدموا خطوة الى الداخل ...

وشغلتنا بعد ذلك أحاديث متباينة حتى تبادرت السهرة نهايتها ، وقام الصيف لينصرف .

وحين خطا أولى خطواته لاحظت أنه اعرج ... واذ رأى احدق في رجله المكسورة ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، ثم حيانا ومضى يطلع ، والكلب يطلع من ورائه .